الفصل الخامس

بدايات باته

ان باته الأب ، بائع لحم الخنازير والجندي القديم في حرس نابليون الثالث ، تزوج فلاحة ألزاسية ولدت له اربعة اولاد نشأوا في العمل والتقتير . وشارل باته الذي احتفظ بتذكار مؤلم من فضلات دكان لحم الخنزير الأبوية ظل مدة طويلة لا ينتعل حذاءً الا في قداس يوم الاحد ، وكان الحذاء لأمه .

وبعد ان تتلمذ شارل الصغير على عمّ لحام سار يغزو العالم الجديد وبجيبه ورقة الألف . وبعد ان اشتغل بالتتابع مبلطاً وعاملاً وغسالاً في بونس ايرس اعاده وباء الحمى الصفراء الى اوروبا دون أي فلس . ثم تزوج واصبح مستخدماً صغيراً في مكتب ، وكان على وشك العودة الى بيع لحم الخنزير عندما جاءه أحد اصدقائه في نهاية صيف ١٨٩٤ وأراه فونوغرافاً لأديسون يمكن عرضه في الاسواق العامة ، وكان « باته » في الثلاثين من عمره . واشترى شارل دون تفكير آلة متكلمة ، وكان ثمنها يساوي اجرته في مدة ستة اشهر . وفي اول ايلول ١٨٩٤ ترك فانسين في عربة

ذات مقاعد متوجهاً الى سوق مونتيتي Monthéty (سين – اي – مارن) العامة ، وكانت زوجته تحمـــل اسطوانات من الشمع موضوعة في ورق مقوّى . ولو انكسرت هذه الاسطوانات لأفلس الزوجان .

وابتسم الحظ لشارل باتـه . وتشاجر سكان سين – اي – مارن مع المستمعين العديدين للآلة المتكلمة . وعند رجوع الزوجين الى فانسين كان في جيبهما عشر ليرات ذهبية . فقد ربحا في يوم اجرة شهر من العمل .

وطاف الزوجان على الاسواق العامة في الضاحيـة الشرقية . وبعد ان جمع شارل باته رأس مالٍ صغيراً علم ان هناك نماذج مقلدة ممتازة لفونوغراف اديسون تباع بثمن بخسٍ في لنـدن . فاجتاز المانش واشترى تلك الاجهزة وباعها الى رواد الاسواق العامة المندهشين من رؤيته يربح الدراهم من بيع الضجّة . وحمل من انكلترا ، بعد الفونوغراف ، اجهزة وليم بول ، الكيناتوسكوب ؛ وصنع له جولي بعد قليل اجهزة للسينما .

وأمام نجاح الابن الثاني الذي لم يفعل « شيئاً حسناً في حياته » اشترك إخوته الثلاثة في تجهيز رأس مال صغير له بقيمة عشرين الف فرنك. ولكن اثنين منهم استعادا أموالهما عند اول اشارة خطر. وظل اميل وشارل وحدهما مشتركين ، وكادت السينما تسبب افلاسهما بسبب دعوى اقامها عليهما عميل مستاء .

ولحسن الحظ نجحت عمليـة بيع اسطوانات الفونوغراف ؛ واجتذب متجر « باته اخوان » الجديد انتباه كبار رجـــال

الاعمال ، وذات يوم من سنة ١٨٩٨ قـــدم له شخص يدعى غريفولاس مبلغ مليون لتأسيس شركة توصية .

وغريفولاس هذا ، مهندس ومخترع وصاحب مصنع للاجهزة الكهربائية ، كان يمثـل جماعة من ليون يحركها المدعو نيره Neyret ، وهو صانع قفازات في الدوفينه ، ومالك منجم للفحم الحجري في سانت إتيين ، وصاحب مصهر حديـد في فيرميني . ومنذ ذلك الوقت أصبح الأخوان باته مدعومين ، بواسطة شركة التوصية هذه ، بالمال والصناعة الكبيرة . واصبح الجوّال القديم في الاسواق العامة رجل أعمال .

وافتتحت الشركة في « شاتو » مصنعاً هاماً للتسجيل وطبـع لفائف الورق ، ثم عززت في فانسين إنتاج الافلام التي كانت تمثل على منبر قائم في العراء على براميل .

وكان فرديناند زيكا Zecca ، « ولد الطابة » وسليل عائلة من فناني المقاهي الغنائية ، قد سجل اسطوانات في شاتو ... وفيلماً ناطقاً بطريق الصدفة ـ قبل ان يختاره شارل باته ويسلمه إدارة الاخراج في فانسين ؛ وحين قويت الأعمـــال بنى استديو اكثر اتساعاً من استديو ميليه .

وفي الغالب كان زيكا يُقدَّم كمنتحل لميليه ، والذي لا شك فيه هو ان شركة باتـه تناولت اولا اساليب اكبر منتج في ذلك العصر . انها جعلت من زيكا رجل ـ اوركسترا : فهو مزخرف ، منفذ اعمال ، صانع سيناريو ، نجم سينمائي ، وفرضت عليه مواضيع قريبة من المواضيع الناجحة لشركة (ستار فيلم) . ولكن فيلمه

السحري الكبير الاول « قصور الشيطان السبعة » يقلد « الحصن الصغير» كمونتراي - وقد أدخل فيه لوسيان نونغه رئيس التصوير — ونقل زيكا ، اكثر من ميليه ، عن المدرسة الانكليزية: عن سميث وبول . ان العشرة الاولى من افلام ميليه نقلت عن لوميير ، والعشرة الاولى من افلام زيكا انتحلت ، على الخصوص ، مدرسة بريغتون .

وزيكا ، على عكس خلف روبير هودان ، لم يزعم طويلاً انه (بروته) يمارس وحده جميع مهن السينما . فقد قسّم الشغل ، وأحاط نفسه بمساعدين عديدين ، وأنشأ مدرسة .

واول ميزة لزيكا هي انه عرف ان يفهم الذوق الشعبي ، ذوق رواد الأسواق العامة وزبائنهم . وكان « المجتمع الفاضل » قد تخلى عن السينما للأولاد وعامة الشعب . فأخذ ميليه الأولاد ، وظل الشعب لباته الذي بدأ ينتج له بالجملة .

وتابع زيكا في فانسين إنتاج ما قبل سنة ١٩٠٠ ، اي عمل السالفين المجهولين . انه صانع افلام ينقل عن منافسيه ولكنه يجب ايضاً ان يكرر افلامه الخاصة الناجحة .

وكان اسلاف زيكا ، عند باته ، قد جربوا انفسهم في النوع المرح ، وانتجوا مشاهد قتل او إجراءً جوهرياً ورسموا تصميم بعض المهازل التي تدوم دقيقة Comedies-minute واعطوا اول ترجمة للفيلم « الواقعي » . ففي « حلم سكير » تناولوا بعض حوادث رواية « الادمان » لزولا ، ووجهوا ايضاً ، بعد ميليه ، عدة افلام سحرية (علاء الدين ، الجميلة والبهيمة ، الابهام الصغير ،

مهازل الشيطان) وأطلعوا « قضية دريفوس » في ست لوحات .

ان كاتالوج باته رسم لزيكا طريقه . واحتوى ، كبذرة ، جميع الانواع الرئيسيّة التي أنماها فيما بعد، فقد كانت ميزته في ان يجرب كل شيء بعد ان قلّد كل شيء .

وأفلام « الحيل » عنده يمكن ان تكون ذات موضوع او تستعمل وسيلةً تقرّب من وسائل ميليه ، ولكن طرازها يختلف دائماً . انزيكا تكوّن بانتحالاته للمدرسة الانكليزية ، ولم يكن عبداً « للرجل الاوركسترا » ، ولقد عالج أفلامه المتعلقة بالشعوذة على **المخطط الاميركي** في الغالب . ونقل ايضاً الحيلة إلى العراء ، وأوّل فيلم له من هذا النوع « استحمام مستحيل » كان قد نقله بنفسه وهو على زورق خفيف . ومع ذلك فقد اهمل العراء في فانسين بعض الوقت ، لأن الديكور بنظر الزبائن هو ضمانة الفخامة والجودة .

وفي أشرطته السحرية القصيرة قدّم زيكا برهاناً على نوع من العته الشاذ شدد من واقعية الديكور . ففيلمه « أثقل من الهواء » طار فوق سطوح فانسين ، وركب زيكا ، منفرج الساقين ، على سيكار من فولاذ . وفي « عاصفة في غرفة نوم » يظهر الممثل ليزر جالساً على زورق مفكك . وخلفه غرفة بلوحاتها المعلقة واوراقها الموشّاة بالزهر ؛ ويبدو الأوقيانوس والافق من الباب المفتوح قليلاً .

وحوّل زيكا ، بعكس ميليه ، الحيلة الى فن ، والطريقة الى وسيلة للتعبير . ففي فيلم « حب في نفق » يغازل ليزر المتنكر

بزي مرضعة . ويظهر من نافذة عربة الدرجة الثالثة (ديكور من قماش ذي رسوم) منظر أخذ من قطار سائر ومنضد في مكان مظلم . وهكذا نحصل على عمل يشبه عمل شاشاتنا الشفافة (١) . وليست الحيلة هنا كلفة الأبراكادابرا بل اصبحت احد عناصر اللغة.

وهزليات زيكا عديدة ، وانحطاطها نادر في اغلبها . ولكنها تنمي نوعاً كان ميليه غير موهوب به الا قليلا ، ولم يعالجه ابداً.

وكان نجاح افلام السحر قليلا عند زيكا . فأشخاصه جامدون حقيقيون ليس لهم كياسة الراقص وبشاشة الباليه التي يتحلى بها ميليه منظفاً الاخطاء والنفايات . وزيكا اكثر ابتكاراً في نوعٍ هو خلقه ونسقه في كاتالوج باته تحت عنوان « مشاهد مسرحية او واقعية » .

وكان نجاحه الأول هو فيلم « تاريخ جريمة » ، سنة ١٩٠١ . وكان الموضوع قد استعير من متحف غريفن ، حيث قصت هذه الدراما في صور من الشمع دشنت سنة ١٨٨٩ . ولوحات فيلم باته تشبه لوحات المتحف ، ماعدا واحداً ، هو « آخر ليلة المحكوم » فقد كان ، عند غريفن ، يلعب الورق بشكل سيء . وعند زيكا كان يحلم ، وكانت حوادث جريمته تظهر له على مسرح ظاهر فوق سريره . وكانت دعامة الفيلم هي إحدى تلك التنفيذات الرئيسية التي كان نجاحها باقياً في سينما الاسواق العامة حتى سنة ١٩١٠ ، حيث منع وزير الداخلية عرضها .

---

(١) الشاشة الشفافة écran transparent : يعرض عليها منظر متحرك يمثل أمامه ممثل . وهي طريقة مستعملة منذ عام ١٩٣٢ فقط .

وتبع « تاريخ جريئة » فيلم « ضحايا المسكرات » متناولاً موضوع فيلمٍ لباته من انتاج ما قبل سنة ١٩٠٠ : حلم سكير . وقد طبق زيكا أشهر حوادث رواية « الإدمان » لزولا : العائلة العاملة السعيدة ، الأب مقود الى الحانة ، الفرقة التي حدثت فيها المصيبـــة ، الكوخ الصغير حيث مات السكير في حالة من **الهذيان الكحولي** .

وكان زيكا في بداية فانسين قد رسم الزخارف بنفسه ؛ ولما كان غير أهلٍ لرسم الابعاد فقد حوّل المرتفعات الى كومة من البلاط ركز فيها لوحة كتب عليها : « شارع مسدود » . ولم يتصلب في محاولاته الساذجة لأنه كان يكلف بالعمل اختصاصيين حاذقين عندما اصبح ذا رصيـد . اما الزخارف المفتقرة الى كل تخيلات « ضحايا المسكرات » فقد كانت ممتازة ، وساهمت كثيراً في تثبيت هذه الفكرة القائلة ان زيكا واقعي ومعاكس بشكل تقليدي لمليه « الساحر » . ومع ذلك فقـد ظن خطأً انه ليس هناك اي شيء شعري عند فرديناند زيـــكا الذي كان ذا مخيلة زاخرة ، غير موهة ، أريبة ، شعبية .

واهم اثر لزيكا هو فيلم « آلام passion » . وقـــد استهله بشيء من رواية « كوفاديس » ، فهناك امبراطور روماني غامض يجلس على اعلى درج ويحيط به ثلاثة وعشرون من رجال الحاشية متوّجين بالورد ، وقد خفض إبهامه دلالة على انكسار مصارع . وممّا لا شك فيه ، في هذا الفيلم كما في « الابن الضال » ، ان السيد لوسيان الذي يدير التصوير في فانسين قـــد عاون زيكا ،

وكذلك في « المبهم » و « الحصن الصغير » و « باب سان مارتان ».

ولوسيان نونغه الذي كان يعاونه لويس غازنييه مارس مهنته بيشاشة نحاس ، فقد كان يندر ان يدفع لعماله الفرنكات الخمسة التي كانت تدفع له ليستميلهم . وكان له منافس هو جورج هاتو المخرج السابق لبعض أفلام لوميير والذي كان يستميل الجماهير للتمثيلات الايمائية الكبيرة في « سباق الخيل » . وهؤلاء الرجال الثلاثة الذين تعاونوا مع زيكا حققوا في الغالب عمليات الاخراج الهامة ، لأن مهنتهم كانت تعلمهم تحريك الجماهير . اما نصيب نونغه في فيلم « آلام » فكان متفوقاً .

وفيلم « الآلام » الذي شرع به سنة ١٩٠٢ لم ينته قبل سنة ١٩٠٥ ، وقد قرر برنامج من اربعين لوحة وحقق حسب امكانات الستديو . اما جمالية الفيلم السائدة فهي جمالية الامهاد الجصية التي تباع حول سان « سولبيس » . ولكن سحر السينما يغير وجوه هذه الالوان التافهة المختلفة ويكسبها فتنة اللوحة البدائية . والاخراج ليس مفتقراً الى بعض الاتساع ؛ فلاظهار الزخارف الكبيرة كلها تدور الكاميرا على قاعدتها . وفي فيلم « عبادة الرعاة » يظهر المذود اولاً ، ثم يظهر طفل ملقى على القش باشارة معطاة من نجمة ، كما تظهر ارنب في قبعة عالية عند نداء المشعوذ . ثم تدور آلة التصوير في الديكور بشكل غير حاذق لتكتشف جمهور الرعاة ، وتعود بعد ذلك نحو « العائلة المقدسة » دون ان ترافق الرعاة في سيرهم . ومهما كانت بلاهة هذا العمل فان زيكا لم يقلل من استعمال حركة آلة التصوير في الاخراج ، وبذلك تخطى ميليه المخلص للمسرح

والحيـــلة .

وافلام «الاحداث التي اعيد تصويرها مجدداً» اصبحت اخيراً من اختصاص باته . وقاد زيكا أفلام « مقتل الرئيس ماكنلي » موت البابا ، مقتل الدوق دي غيز (كانوا في فانسين يمزجون التاريخ بالحوادث الراهنة » . وكان احد نجاحاته الكبيرة فيلم « كارثة المارتينيك » منافس فيلم « مون - بيله » لميليه . ان الديكور البالغ الندرة عاد قليل الشبه بالواقع بسبب وجـه مدير آلة ظهر وراء دخان البركان . وقد قطعت هذه الصور المزعجة وبيعت نسخ الفيلم بالألوف .

***

ان الفترة الواقعة بين سنة ١٩٠٣ و ١٩٠٩ كانت هي عصر باته في السينما . فهناك روح غير عادي من المشاريع حوّل السينما في خمس سنوات ، من تجارة صناعية عند ميليه الى صناعة كبرى سيطرت فيها فانسين ، العاصمة ، على العالم بأسره .

والفيلم عند باته ، كما هو عند ميليه ، يسترد نفقاته ببيع عشرين نسخة . ولكن كل فيلم من افلام فانسين بيع منه عدة مئات من النسخ ، وأحياناً عدة ألوف . وفي كل سنة ، قبل نهاية كانون الثاني ، يكون بيع النسخ الجاري قـد استرد تكاليف الانتاج بكاملها . وكل متر يُبَاع أثناء الشهور الأحد عشر كان ربحـاً صافياً . وكان يباع من الفيـــلم كل يوم ١٠ ، ٢٠ ، ٤٠ ، ٨٠ كيلومتراً ، وكل ورقـة بألف فرنك أنفقت في الانتاج جلبت عشراً في سنة واحدة .

والمهندس ديسو احد اجراء شارل باته جعله يكتب : « ان السينما هي الصحيفة والمدرسة والمسرح » . وهو كلام ذو وضوح تنبؤي . ولكن السينما في فانسين كانت على الخصوص مسرحاً لرواد الأسواق العامة .

ففي الوف من الاكواخ الخشبية استُبدلت حيوانات ، وظاهرات ، وممثلون هزليون ، وبهلوانيون ، ومصارعون يجب ان يتغذوا كل يوم ، بأشرطة السلليلويد . لقد فتن الفيلم ميليه من قبل لانه حقق الانسان الميكانيكي الذي حلم به فوكانسون ودروز وروبير هودان . ان هذا التمثال المتحرك آلياً ، والذي صنّعه « باته » ، اصبح الرجل الآلي (١) Robot الذي يوفر الأجور دون ان ينقص الأرباح . ان تعقيلا هائلاً قد تم للمسرح وكان لرواد الاسواق العامة نصيبهم منه ولكن الفوائد كانت تتكدس في صناديق فانسين .

وكتب شارل باته بكبرياء ذات يوم : « انني لا اعتقد بوجود مصنع في فرنسا ، باستثناء مصانع الحرب ، كان نموه سريعاً كمصنعنا ، او اعطى ارباحاً مرتفعة لمساهميه مثله » . وقد اقر « باته اخوان » بارباح ضخمة طوال دور تفوقهم : ٣٤٥٠٠٠ فرنكاً سنة ١٩٠٠ ، و ٩١٠٠٠٠ سنة ١٩٠٢ ، و ١٣٧٠٠٠٠ سنة ١٩٠٤ وستة ملايين ونصف سنة ١٩٠٦ ، و ٢٤ مليوناً سنة ١٩٠٧ (بما فيه النفقات) لرأسمال أولي يبلغ مليونين ، وبلغ الخمسة بواسطة توزيع الاعمال المجانية على مجلس الادارة او الأكاذيب

١ — تمثال ذو شكل بشري يستطيع القيام ببعض الاعمال .

الممكن ادراجها في الحسابات .

ان السينما حملت لباته سنة ١٩٠٧ اذن ـ واكثر من ذلك لجماعة نيره Neyret ـ عشرة امثال رأسمال الشركة على الاقل في تلك السنة والسير الذي بدأ على طريق أسواق (سين ـ إى ـ مارن) العامة واصل خطوه بانتصار على القارات الخمس . وطاف السمسار بروبير Proppert الذي لا يكل، العالم منذ سنة ١٩٠٢ وفتح وكالات في لندن ، ونيويورك ، وبرلين ، وموسكو ، وبروكسل ، وبطرسبرج ، وامستردام ، وبرشلونه ، وميلانو وروستوف على الدون ، وكلكوتا ، وفرسوفيا ، وسنغافورة . الخ . وتحولت الوكالات بسرعة الى فروع . وفي سنة ١٩٠٨ كانت الشركة تملك ما قيمته مليونان ثمناً للبنايات في نيويورك حيث فتحت استديوهاتها . وفي سنة ١٩٠٨ فان الامتار من الشريط الخام التي باعها باتـه في الولايات المتحدة تجاوزت ضعف المبيع الاجمالي لجميع المنتجـين الاميركيين مجتمعين .

وفي كل مكان كان **الديك** ، شعار الشركة، يجتذب الجماهير الى القاعات المظلمة . وقد عقد العزم حينذاك في فانسين على القيـام بضربة كبرى ، بناء على اقدام باته ، بعد نصيحة صديقه لليـافر Leliévre ، وهو رجل ثقة لمصرف كبير .

وكان توسع المشاريع يسير أفقياً حتى ذلك الوقت : ان قطرة الزيت المنطلقة من فانسين غطت العالم بكامله تدريجاً . وبعد ذلك وجه شاول باته جهوده الرئيسية الى التوسع العامودي . لقد كان يريد ان يملك كل شيء ، من صنع الافلام الخام والاجهزة حتى

القاعات والاكواخ الخشبية التي تعرض فيها افلامه .

وفي تموز سنة ١٩٠٧ أتم باته ما سماه المحترفون الفرنسيون قلب نظام الحكم عنده . ووُزع منشور يعلن ان البيت الكبير قد كف عن بيع أفلامه . واصبح استثمار افلام باته خاضعاً لخمسة احتكارات كبرى فقط تتقاسم فرنسة وبلجيكا وهولاندا وافريقيا الشمالية في خمس مناطق كبيرة . وكانت بعض الاحتكارات التي يشرف عليها باته مباشرة تضم القاعات التي بدأ يفتحها في المنطقة الباريسية . وكان غيرها يدور حول جماعة مالية يمثلها محامي الشؤون بنواليفي. ولكنها كانت مرتبطة بباته باتفاقية التموين .

وكانت هذه الاحتكارات مؤسسة على قاعدة تحديد القاعات التي كانت منتشرة قليلاً لأن الاستثمار ذا المركز الثابت لم يكد يبدأ . وبحثوا عن طالبين آخرين جدد لرخص الاستثمار وبذلك اصبحوا موزعين يؤجرون مسارحهم ساعة التمثيل .

ودَهْورَ « قلب نظام الحكم ، تمييزاً كان قد بدأ يحدث منذ سنة ١٩٠٢ في المصانع السينمائية . وكانت قد تطورت مع نمو الاستثمار تجارة افلام اللقطة (اي التي يحصل عليها المشتري صدفة) التي كانت ترمي الى ان تصبح تأجيراً . وكان للمهنة يومذاك ، كاليوم ، ، فروعها الثلاثة : انتاج الافلام الذي هو اليوم صناعة ؛ التوزيع او التأجير الذي يشبه تجارة الجملة ؛ الاستثمار الذي يستهدف الجمهور مباشرة ، والذي هو تجارة بالمفرق .

وكان باته الصناعي يريد ان يصبح تاجراً بالجملة والمفرق معاً . فقلد ، مثلاً ، إيستمان كوداك الذي يصنع افلامه واجهزته ،

واصبح يخزنها و يوزعها ، ويملك متاجره الخاصة ، يكل بيـــع منتوجاته الى بعض بائعي المفرق حسب شروط دقيقة .

وكان رأسمال القابضين على شركة (حصر باته) قد تجاوز منذ سنة ١٩٠٧ خمسة عشر مليوناً من الفرنكات الذهبية . وحين كان شارل باته يأخذ على عاتقه تشكيل هؤلاء الشركاء ، او يتخـــلى عن ذلك ، فقد كان يتمم في مصنعه صنـــع الاجهزة والمواد الاولية .

وكانت اجهزة الأشعة تصنع في بالفيل بواسطة شركة كونتنسوزا التي كان يسلفها لاتمام مشاريعها ، وتدور في فلكه . لقـد كانت هذه المعامل اذن الاولى في العالم . وقبل سنة ١٩١٤ فان ثمانـين بالمئة من القاعات في بلدان عديدة كانت مجهزة بأجهزة باته للاشعة . وشركة كونتنسوزا ايضاً كانت تجهز بآلات التصوير والمواد .

وللشروع في انتاج الافلام الخام وجب فسخ الاحتكار شبه المطلق الذي كان يمسك به ايستمان كوداك منذ عهد (البلاك ماريا) . وكان للشركة التي تحقق كل سنة ارباحاً أسطورية منافسـان فقط يومذاك يمكن اهمالهما : لوميير ، الذي يصنع في فرنسـ .من الافلام تستحق السخرية ، وبلير ، الذي كانت منتوجاته المعتدلة تحضّر بتجهيزات بدائية في انكلترا . وكان كوداك يصنع اكثر من ٩٥ ٪ من الافلام المستعملة في العالم . ويستهلك باته مليونـاً من الامتار . وكان يشتري منه نصف أنتاجه تقريباً .

وكشف التحقيق لباته ان المتر من الفيلم الذي يباع بخمسين سنتيماً تقريباً لا يكلف صانعه اكثر من سنتيمين او ثلاثة . والفيلم

الخام ، وخطره أقل ، كان يربح اكثر من الفيلم المطبوع . وأسرار الصناعة في المصانع الاميركية كانت محفوظة تماماً : فالكيمياء طريقة للتركيب يستصعب تقليدها ، والصناعة الفوتوغرافية الأوروبية كانت تملك فنيين ماهرين في تحضير المستحلبات (١) émulsions . ولكن صنع دعامة Support من السلليلويد الشفاف كان بدائياً خارج اميركا . وكانت هذه المشكلة الاخيرة لا تزال دون حل عندما اعلنت الشركة الكيماوية الالمانية اختراع دعامة من أسيتات السلليلوز تملك صفات السلليلويد وأفضلية عدم الاحتراق . ورأى شارل باته نفسه على اهبة الدخول في صراع مع روشستر فاشترى مصنع بلير الانكليزي في (فوت كرات) سراً ، وجدده وزوده بالفنيين . وقد هيأ له هذا « المشروع القائد » افتتاح مصنع ضخم للأفلام في فانسين .

وبعد احتكار المادة اراد شارل باته ان يحتكر الروح ايضاً . فبعد سنة ١٩٠٦ تجاوزت الافلام الثلاثمئة متر بسهولة ، وتعقدت القصص ، واتخذ السيناريو اهمية اكثر من السابق . ورأى باته ان تصوير آثار المسرح والادب في افلام سيكون عملية ناجحة . وقد جالت هذه الفكرة قبلاً في رأس بنوا ليفي الذي كان يمثل جماعة مستقلة في فانسين . واحبط باته المفاوضات المعقودة مع « جمعية رجال الأدب » بواسطة المحامي . وقادها بعد سنة الى نهاية حسنة لحسابه . وبتأسيس الجمعية السينمائية للمؤلفين ورجال الأدب التي يديرها بيير ديكورسيل اصبحت اكثرية المؤلفات

(١) مستحضر مؤلف من ملح الفضة والجيلاتين .

المسرحية الفرنسية ضمن نطاق الحصر .

كان باته قد راقب كل شيء وأتم كل شيء ، من دماغ الكاتب الى قاعة السينما في الحيّ ، ومن صناعة الافلام الخام الى الكوخ الخشبي في الاسواق العامة . وولدت شركة ضخمة في ست سنوات. ونشرت تأثيرها على الارض كلها وكانت تراقب معظم الصناعات الناشئة . وبدت قوتها غير المحدودة انها لا تهاب اي منافس .

وكان هناك خمسة استديوهات في فانسين ومونتراي وجوانفيل تشتغل كل يوم ، وقد جهزت بالكهرباء لتستطيع العمل في الشمس ، وبدونها .

وكانت تجارة الفيلم الدولية خاضعة لباته ؛ وكانت فروعه وشعبه في كل بلاد تهدد بسحق منافسيه . والوف الامتار من الافلام التي تباع كل يوم في فانسين كانت تعيّن نوع الغناء للعالم . وسيطر باته ، في ذروة قوته ، على أكثر مما تستطيع اليوم قوى هوليوود الكبرى ان تسيطر عليه . مع القول ان أهمية صناعة السينما كانت اقل مما هي عليه اليوم ، وهذا صحيح .

***

لأجل تأسيس وتغذية هذا المشروع الضخم ، اصبح المحامي السابق جاك زيكا ، مديراً للانتاج . وقد عين عدداً كبيراً من المخرجين كوّنهم بنفسه على الغالب ، وهؤلاء خلقوا انواعاً وانماطاً .

ان مشاهد الافلام السحرية ، المدينة بالكثير لميليه ، تطورت عند باته في اتجاهات اخرى . ففي «غليوم تل» او « الهر المنتعل» (اخراج لوسيان نونغه سنة ١٩٠٣) كان الديكور مبالغاً فيه .

وقد ضاع ميليه ومساعده كلوديل بالتفاصيل حينذاك ، فضاعفا اللواحق وضادّا سوادها وبياضها بشكل رومنطيقي . اما في فانسين فقد عمدوا الى البساطة والتهوية وفتح مناظر واسعة تخدع العين واظهار فخامة كان المسرح قليلاً ما يحتوي عليها ، كالبركة التي يعوم فيها زورق جسلر ، ويسبح المركيز دي كاراباس محيياً عربة ملكية ذات اربعة جياد .

وبينما ظل ميليه مسجوناً في زجاج الستديو ، مغرقاً نفسه في فيضان مخيلته ، فان القائمين بالعمل عند باته لم يغب العالم الخارجي عن نظرهم . وقد ناوبوا ، على الطريقة الانكليزية ، بين العراء والستديو .

وفيلم «ابن الشيطان» للبين Lépine هو مثل صالح على اتحاد الديكور الخيالي مع الاطار الطبيعي . ان ابن الشيطان يخرج من الجحيم من قماشات مصوّرة بواسطة السراديب الغريبة في مصانع مونتراي ، ويوزع بملء يديه حلويات على المتسكعين على باب فانسين . وليس هناك من قطيعة بين لديكور والشارع . وقد رفض ميليه يومذاك عملية كهذه تقطع وحدة فنه .

وكان غاستون فل Velle يقود مع بويو طوال ثلاث سنوات افلام الحيل في فانسين . واصبح الخيالي مألوفاً في هذا النوع القريب من الافلام السحرية ، وكانت طرفة فل هي فيلم «عاشق القمر» الذي ترجمه زيكا . ولم يكن هذا السكير الطائر ، المبتذل قليلاً ، مديناً بشيء لميليه .

والمسرحيات **الواقعية** نمت في اتجاه « اجتماعي» مع زيكا الذي

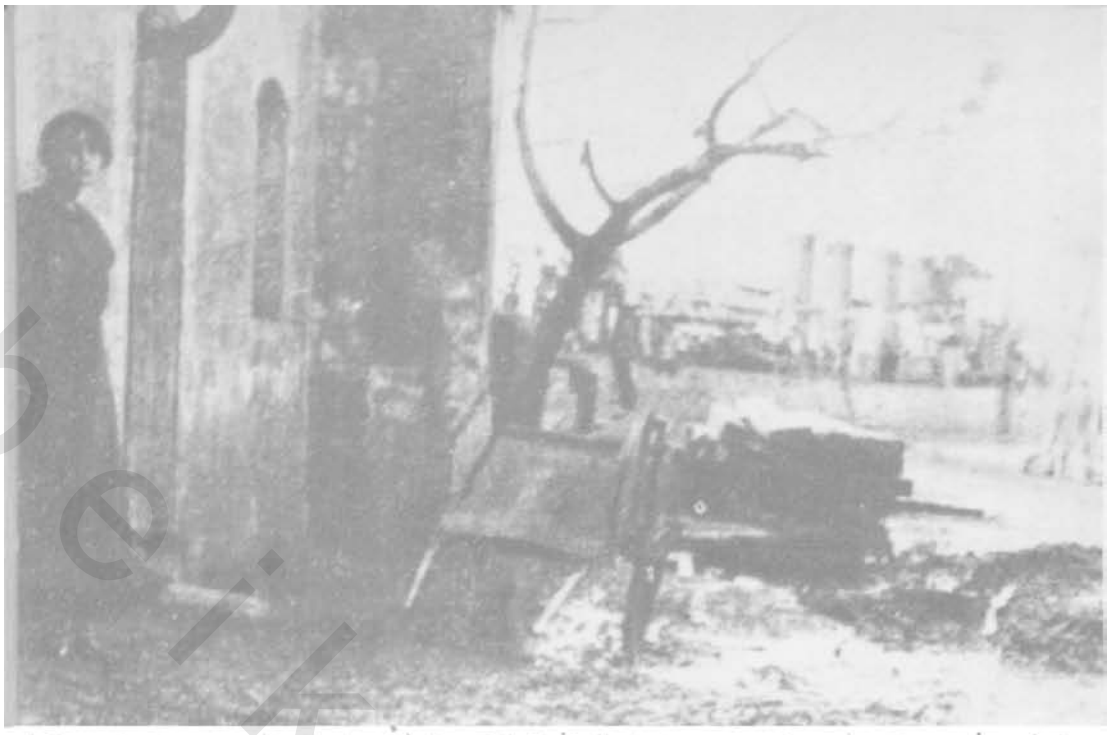

زيغومار : (جاسه ، ١٩١١) ، العظمة الفاجعة لأحياء العمال رسمها جاسه كما سيرسمها فيما بعد فيغو وكارنه .

بعثة جود كس الجديدة : (فوياد، ١٩١٨) برهن فوياد عن ذوق صائب، وفهم للمناظر الطبيعية ، ورغبته في العمل جعلته شائقاً الى اعلى درجة .

obeikandi.com

انتج فيلمي «الاضراب» و«البلد الاسود» . وقد انتهى الاضراب **بالتوفيق بين رأس المال والعمل** ، مُباركاً من العدالة . وكانت دعامة «البلد الاسود» **انفجاراً لغاز المناجم**. اما خارج المواضيع التاريخية فقد كان جميع ابطال باته كزبائنه يومذاك ، من الطبقة الفقيرة . وكانت الروايات الاجتماعية لا تزال وقفاً على المسرح .

والعشق السينمائي ولد مع الكيناتوسكوب وشكّل شعبة خاصة في كاتالوج باته : **مواضيع خلاعية ذات صفة قارصة . ابعاد الاولاد عن عرض هذه المشاهد** . وكانت لويز ميللى قد نقلت لزيكا ، من جديد ، فيلمها « ضجعة المتزوجة » الذي كان دعامة الحفلات الموقوفة على الرجال وحدهم .

اما باته فقد ادخل الى السينما عواطف اكثر نبلاً . ونجاح **رواية الحب** للمزخرف لوران هيلبرون عين مجرى جديداً في الانتاج . ومنذ ذاك الوقت اصبحوا يتكلمون في فانسين عن **السينما ـ الروايات** ليشيروا الى الافلام التي تسرد تاريخاً عاطفياً . وغا هذا النوع بواسطة اندره هوزه Heuzé . وصور فيلمه «المهاجر» مثلاً، تدهش بواقعيتها المألوفة وعصريتها التي تتعاكس مع بدائية ميليه المعاصرة . فلأجل التقاء صف ضابط ومغنية في مقهى للغناء في مدينة صغيرة للحامية فاننا نستعمل اليوم ديكورات اكثر تعقيداً واشخاصاً اكثر عدداً وتنويراً اكثر نقاء ، ولكن مفهومنا بمجموعه عن الاخراج سوف يظل هو نفسه .

ان سنة ١٩٠٦ سجلت عند باته انعطافاً فنياً . فقد بلغت الافلام درجة الابتكار في جميع الميادين والانواع . ونسيت النماذج

الاجنبيـــة او الفرنسية وتخطيت . واصبح المقلدون خالقين ، والسينما ـ الروايات المهيأة بواسطة بعض الافلام الانكليزية تمثل لوقت معين الشكل الاكثر تطوراً وتفتح الطريق امام السينما الدانيمركية والاميركية .

ولم يكن تطور الافلام الهزلية أقل اثراً ، فقد نضج فن هزلي جديد في المستنقع التافه القذر لهزليات زيـــكا : السكير بواسا نسواف (١) ، الزوج ديكورنار ، العقاب النظيف ، البـــواب بيبله ، تلميذ في التصوير ، الشرطي ، غريبوي ، الهندي الأحمر ، لاجيغوليت ، بانـــدور وكل الشخصيات المأخوذة من الصحف للاضحاك ، او من التقاويم السنوية .

وبقوة الأشياء تشكلت فرق من الهزليين ، وتعلم الممثلون مهنتهم من التطبيق العملي اليومي متحققين بواسطة العرض من سلامة تمثيلهم وتأثيرهم .

واختيرت المطاردة الهزلية في فانسين سنة ١٩٠٥ ، مع افلام « عشر نساء لزوج واحد » (المنقول عن نموذج اميركي) « سباق الشعر المستعار » ، و « Vot'permis » ، « تعال ابحث عنه » . الخ وكان المطاردون بهلوانيين محترفين ، آتين من القاعات الموسيقية او من المقاهي الغنائية ، واختصاصيين بالهبوط والقفز الخطر او « بقفزة الأسد » . ومن بينهم روميو بوزيتي وأندره ديد .

ومثل ديد أفلامه الاولى عند ميليه . وقد كان بهلواناً ومغنياً

---

١ ـ اسم علم منحوت على سبيل المزاح من Boit sans soif التي تعني : يشرب دون عطش . ـ المعرب ـ

في مسارح باريسية مختلفة ، واصبح منذ سنة ١٩٠٦ النجم الهزلي الاول عند باته ، وكان معروفاً عند سواد الشعب باسم «بوارو »

واستعمل ديد العمل الهزلي النظري Gag اكثر من المطاردة وبعد ذهابه الى ايطاليا سنة ١٩٠٥ فان ماكس لاندر الذي حل مكانه انتقل من العمل الهزلي النظري الى البسيكلوجيا او الى هزلية المواقف. وكان هذا الشاب الحائز على اكليل معهد بوردو الموسيقى قد بدأ بتمثيل الادوار تحت إدارة غيره في « متنوعات »، أفضل مسرح لبولفار .

وكان ماكس قصير القامة ، نحيفاً ،شبه ممراض . وبدأ حوالي سنة ١٩٠٥ في فانسين؛ ومثل فيها دور تلامذة الكليات (الخروج الاول ، السيكار الاول . الخ .) واخذ ادواراً في مسرحيات وسحريات (حياة كراكوز) .

وازدادت كمية الافلام كثيراً عند باته بين سنة ١٩٠٢ و ١٩٠٨ . ففي سنة ١٩٠٢ لم يُمثل اكثر من الفين او ثلاثة آلاف متر من السلبي Négatif في استديو وحيد . وفي سنة ١٩٠٩ كان هناك خمسة استديوهات تعمل باستمرار وتحرص على تزويد صالات العرض عند باته بمنهاج جديد كل أسبوع ، يشتمل على اكثر من الف متر من الافلام . وهذه الزيادة بالكمية التي تدفقت سنة ١٩٠٦ احدثت تحسيناً وتحويلاً بالنوع . والانواع تختلف . فأفلام السحر انحطت ، والهزليات تطورت نحو الفن الكبير ، والدراما العاطفية وجدت حقها في المدينة . والنجاح الثابت لفيلم « آلام » [حيث بيعت منه الوف النسخ ، وحيث شرع بعمل نص جديد

له سنة ١٩٠٧] كان يقود باته ـ ومنافسيه ـ بحكم الطبيعة نحو صيغة جديدة هي **الفيلم الفني** .

لقد كانت السينما اكواخاً من القماش فأصبحت مسارح . ان سينما ـ مسرح جديدة يجب ان تولد .

obeikandl.com